

الأبد في تحولاته

ابراهيم ابو هشمش

حتى تستوي على ارتفاع يزيد قليلا عن 800م فوق سطح البحر، ثم تستدير إلى اليمين متجاوزة مسجدا قديما يشرف موقعه على مشهد واسع. إلى اليسار تقع البلدة القديمة ببنائها الحجرية العريقة ذات الطراز المعماري الفريد الذي ساد في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وإلى اليمين تقوم البلدة الجديدة ببيوتها الجميلة المتباعدة محاطة بحدائقها الخاصة.

حالما تجاوزنا بلوطة يبرود الشهيرة المعمرة التي انحرفت عنها الطريق تقديرا لمكانتها، لاحظنا أن السيارات القادمة من الاتجاه المعاكس تشير لنا بأضوائها المتقطعة، ما يمكن أن يعني تحذيرا من حاجز. أوقفت سيارة حاذتني فيها رجال ودودون، وسألتهم، فأكدوا وجود حاجز على مدخل سلواد بعد الجسر الذي تمر من فوقه سيارات المستوطنين، وقالوا إنهم يمررون سياراتين بالتناوب من كل اتجاه، ولكن علينا أن نكون حذرين من الجنود، فهم "مصرعون مثل الذين ركبتمهم قردة"، وهو تعبير شعبي يعني كمن أصابهم مس من الجنون. قلت فليفعلا ما يحلو لهم، ف"من هالمراح ما في رواج"، فأكدوا قائلين: "وأين نذهب، قاعدين هنا يعني قاعدين"، وحيثنا بهتديز بالغ يميز سكان هذه القرى، وانطلقوا في طريقهم. لم أعد أستغرب هذا الجنون الذي يعترهم على نحو زائد كل يوم جمعة كأنه نوبة من الحمى الراجعة التي تغيب ثلاثة أيام وتعود في اليوم الرابع، فقد أخرج هذا الجنون ليبدو انفلاتا عشوائيا عنيفا غير مسيطر عليه، كما شهدنا اليوم في سردا والرياحن، وكما حدث للشباب وابنه في يبرود، وكما في حرق أشجار الزيتون المعمرة في وادي الشاعر بين اللبن الشرقي وسلفيت،... إلخ- ولكن ذلك كله في الحقيقة مصمم تصميمًا منهجيا منظما وفق خطط مركزية محكمة.

وصلنا الحاجز، وهناك تأكد لنا تصرف الجنود العصبي، لكن الأمور مرت بسلا. وهكذا تجاوزنا البوابة الصفراء الأولى، على أمل أن تكون بوابات دير جرير والطيبة والبنانا مفتوحة، وهذا ما كان. ولم تصادف في طريقنا أي معوقات أخرى، ما أتاح لي فرصة تأمل التلال وملاحظة التغيرات الجديدة. في السابق كانت على طول جانبي طريق المعرجات قرى بدوية، وشاخصات حديدية تحمل عبارات تحث على ذكر الله والصلاة على النبي. أذكر واحدة منها على المنعطف كان مكتوبا عليها: "قف، هل ذكرت الله اليوم؟". منذ ثلاث سنوات هجرت القرى، ولم تبق سوى أسرة واحدة صمدت في بيتها المحصن بالإصرار والأسوار والأسيجة المعدنية قرب دوار الطيبة، لا تمر ليلة لا تتعرض فيها للهجوم والمضايقات، أما الشاخصات الدعوية، فقد أزيلت جميعها، وانتصبت مكانها أخرى تحمل مجسمات حديدية للنجمة السادسة.

كل شيء يتغير على نحو حثيث، والبيثور تزداد انتشارا على الوجه الجميل، لكن نظري يحاول تجاهل هذا القبح الطارئ، والتركيز على الملامح الساحرة التي يمنحها المشهد البانورامي الواسع، وهنا تتلاشي الحدود، ويغدو الغور والجبال شرقي النهر أيضا جزءا من هذا المشهد الأليف الواسع. التلال والسهول والجبال مثلها هي منذ ملايين السنين، أما هذه الحدود فهي من أوهام البشر وضلالهم الكثيرة. يسعدني أن الطيور والغيوم لا تراها ولا تحسب لها أي حساب. لمّا كنت في الرابعة أو الخامسة، كان جدي لأمي يجلسني إلى جانبه ويشير إلى غيمة كثيفة في الشرق قائلا: تلك الغيمة تمطر الآن على الكرك يا سيد..

قبل هذه السنوات الأخيرة الصعبة كنت أختار في كل مرة طريقا مختلفة تؤدي إلى أريحا، ولكن أحبها إلى نفسي الطريق التي تمر من دورا القرع إلى عين يبرود ثم مثلث سلواد. كنت أفضلها على غيرها لأمتع نظري بقطعة من بقايا غابات البحر الأبيض المتوسط التي كانت تغطي الجبال في بلاد الشام، قبل أن يقضي على مساحات واسعة منها الاحتطاب الجائر بغرض صناعة الفحم لتلبية احتياجات المدن، والتوسع العمراني. هنا ما تزال السفوح مغطاة بطبقة كثيفة من بقايا هذه الغابات التي تشكلها أدغال وأشجار طبيعية من السنديان أو البلوط الصخري والعذق والسويد والبطم والقطلب (القيقب) والسدر يس والسماق.

في تلك الأوقات كنت أذهب إلى أريحا للتمتع بالسكنية في البرية، والإصغاء لتغريد الطيور التي تصل في الخريف، أصغي وأحاول معرفة كل طائر من تغريده، كنت استمتع أيضا بمشاهدة رفوف الحمام البري الأزرق أثناء عودتها من الغور إلى وكناياتها في الكهوف وتجاويف الصخور المرتفعة في أعالي القمم، بعد أن تكون قد شربت من قناة العوجة، وتناولت طعامها مما يتناثر من معالف أغنام التجمعات البدوية الكثيرة التي كانت تنتشر في كل مكان، ولم يعد لها أي وجود الآن. يا إلهي، كيف تغير كل شيء! حتى القبرة التي اعتادت أن تحط على الطريق، لم أرها هذه السنة، ولكن صرت أرى بين حين وآخر بعض جثث الثعالب والخنازير البرية التي قتلتها السيارات المسرعة. أفكر دائما: هل ماتت هذه الكائنات وهي عطشى أيضا بعد أن سيجوا ينبابيع التي تتدفق من الجبال منذ آلاف السنين؟

بعد أن أغلقوا الشارع الواصل بين عين يبرود وسلواد، صرت أسلك طريق نابلس حتى عين سينيا، ومن هناك أنعطف يمينا في الطريق الصاعدة إلى قرية يبرود، هذا المسلك الصعب شقه الناس أثناء الانتفاضة الثانية بحثا عن منفذ إلى رام الله بعد أن أغلقت كل الطرق الرئيسية منها والفرعية. تتسلق هذه الطريق الجبل صعودا بتعرجات طفيفة

رواية مدام بوفاري وعقاب المعلم

حين قرأت رواية غوستاف فلوبير "مدام بوفاري" لأول مرة، كنت ما زلت طالبا في الصف الثالث الإعدادي، وكنت مستمتعا امام الطلاب، أنني أقرأ في كتاب استعرتته من مكتبة المدرسة بعد التحايل على أستاذ اليمن أستاذ اللغة العربية الذي كان مدير المكتبة أيضا، باشرت بقراءتها في حصة الرياضة، كان زملائي يلعبون الكرة ويصيحون في الملعب وأنا اجلس في ساحة المدرسة وأقرأ. بعد هذه السنوات أتذكر، واحاول ان اربط بين كل هذا الماضي، والقراءة وشغف المعرفة، بما اصبحنا عليه اليوم من احباط ويأس. المهم كنت أقرأ ومن اول الرواية وفي الصفحة الثالثة أو الرابعة فقط، حينما يأمر المعلم التلميذ شارل بوفاري أن ينسخ عبارة "مبلغ مثير للضحك" عشرين مرة، تذكرت أول مرة تعرضت فيها لمثل هذه العقوبة المدرسية وتنبهت إلى أصلها.

وكنْتُ قد اعتبرتها عقوبة أقل قسوة من عقوبة الضرب التي غالبا ما كان المعلمون في مدرستنا يلجأون إليها وأحيانا لأتفه الأسباب. "افتح إيدك!" يصدر الأمر بصوت المعلم الغاضب، تعقبه على راحة اليد ضربة المؤشر الخشبي، الذي كان يُستخدم لمعاقبتنا. وكان المعلمون في مدرستنا أولاد حرام ساديون يستقون لذة أشبه باللذة الجنسية من معاقبة التلاميذ!

وكنا أضحكنا في غرفة الدرس وعقابا لنا أمرنا المعلم بأن ننسخ جملة واحدة مئة مرة. كانت عقوبة مرهقة ليد ومملة، ومع ذلك أحسنا بأننا قد نجونا بعقوبة أدنى من المعتاد. لم أدرك مغزى هذه العقوبة وخطورتها إلا بعد أعوام عديدة حينما قرأت الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو حيث تناول بالتحليل العميق النقدي التحكم بالعقل والجسد في سياق تكريس النظام من خلال مختلف أشكال العقاب.

بخلاف عقوبة الضرب التي تطاول راحتي اليدين فقط فإن "عقوبة النسخ" تطاول كامل الجسد والعقل. فهي ترغمك على المكوث جالسا في مكان واحد لوقت طويل بينما تقوم بالعمل نفسه، تحرك يدك لكي تكتب العبارة نفسها مرة تلو أخرى، وبما يستدعي قدراً من التركيز الذهني. ويصيبك تعب اليد الذي يمتد ليشمل ذراعك وكتفك ويغشاك الملل لفرط تكرار العبارة نفسها، حتى لتحس بأن عقلك نفسه أمسى مجرد نسخة من العبارة المنسوخة. والغاية تأهيل التلميذ للخضوع للنظام والروتين في المدرسة ولاحقاً في العمل والمجتمع عموماً.

حقيقة الآن أستبعد أن المعلمين في مدرستنا كانوا يدركون الغرض الأبعد لهذه العقوبة. فهم أنفسهم كانوا يفضّلون عقوبة الضرب خاصة لما تعود عليهم من فائدة شخصية، أقصد التخلص من الإحباط الذي يكابدونه، بدلاً من اللجوء إلى ممارسة عادات أخرى قد تسيء إلى المدرسة ودورهم فيها كمعلمين.



وقفة الرعاة الشهيرة، فيبدو كأنه مسيح معلق على صليب اللوعة والحنين قبل أن ينطلق شاكيا بثه وألمه للسهول والجبال والكائنات: واشرفت عالمشرف واوميت بالخمس وقلت يا جرف الندم وين خلي فهل يعرف هؤلاء مثل هذا الحنين والأسى، أم أن القمة لا تعني لهم سوى موقعها الاستراتيجي الذي يصلح للسيطرة والتحكم. مع هذه الأفكار كنا قد صرنا بمحاذاة القرية البدوية الأخيرة التي اكتمل تهجيرها نهائيا قبل عام تقريبا. رأينا حافلتين تقفان هناك وعشرات الأشخاص رجالا ونساء من متوسطي العمر ينتشرون ويتأملون القرية الفارغة ومسجدها الصغير المهذوم. قدّرنا أن هؤلاء من دعاة السلام والتعايش، وأن هناك جهة ما تنظم مثل هذه الرحلات أسبوعيا، فقد رأينا حافلات أخرى في الأسبوع الماضي أيضا، ولا بد أنهم يزورون بقية التجمعات والقرى التي جرى تهجيرها من مناطق الغور. أعرف في قرارة نفسي أنني أزداد يقينا بالمستقبل كلما ازدادت البلاد ضيقا علينا، إلا أنني أدرك في الوقت نفسه فداحة الخسارة، وما كان يبدو من قبل بدهيا وعاديا، ولا يحتوي على أي قيمة مضافة، يغدو الآن فردوسا مفقودا. لكم أفتقد الألفة والطمانينة اللتين كانت هذه القرى تشيعهما في النفس. صحيح أن القطعان مازالت هي هي، لكنها الآن قطعان مسروقة، يسوقها سارقون، يمتطون حميرا مسروقة، ويتجولون بها في سهول مسروقة، ويوردونها ينابيع مسروقة، وأنا لا أفعل أي شيء سوى محاولة الاحتفاظ بالمشهد كاملا، لا أريد أن تفوتني منه أدق التفاصيل، كأن هذا هو الهدف الوحيد الذي خلقني الله من أجله.

طريق ترابية تصعد عن يمين النازل إلى أريحا إلى أعلى قمة في المنطقة، في بدايتها يافطة قماشية بهتت مع الزمن عليها صورة رجل وامرأة. قدرت أنهما الشخصان اللذان أقاما بؤرة في الأعلى لا نراها من هنا، ولكن يدل على وجودها أنبوب المياه الذي يأتي من بعيد ثم يصعد محاذيا هذه الطريق. في الزيادة الأخيرة رأيت على تلك القمة ما يزيد عن عشرة كرافانات كبيرة، وحفارين عملاقين أحدهما أصفر والآخر برتقالي ينهشان الجبل مثل عقربين هائلين، وأعلما كثيرة جدا متلاصقة كأنها جداران متقابلان يحيطان بالطريق. قدرت أن بلدة كبيرة ستقام هناك إذا ظل نموها بهذه الوتيرة، فقد رأينا مثل ذلك سابقا على الطريق بين بيت لحم والخليل.

أفكر أن من يحتل هذه القمة المشرفة سوف ينفث أمامه مشهد واسع ممتد سيستولي عليه بصريا أيضا، فهل يعني ذلك الاستيلاء بالنتيجة على الذاكرة التي تراكمت مع الزمن عبر العلاقة بالمكان الصلب والمشهد الممتد على مدى النظر؟ وهل استعادة المكان، إذا تمت، ستعني أيضا استنفاذ الذاكرة من حيث انقطعت، أم تعني نشوء ذاكرة جديدة مختلفة نوعيا في مكوناتها وإحداثياتها؟ إذا كان الوطن هو المكان الذي يضم أسلافك المدفونين في ترابه، فماذا لو دفنوا موتاهم في تلك القمة؟ أفكر أيضا، لو أن راعيا بدويا ارتقى هذه القمة مع أغنامه كدأب أسلافه منذ عشرة آلاف عام، بعد أن دجن أبناء هذه البلاد من النطوفيين غربي النهر وشرقيه القمح والخراف والحمير، فسوف يقف على حرف الجبل واضعا عصاه على عاتقه، مصلبا ذراعيه حولها في

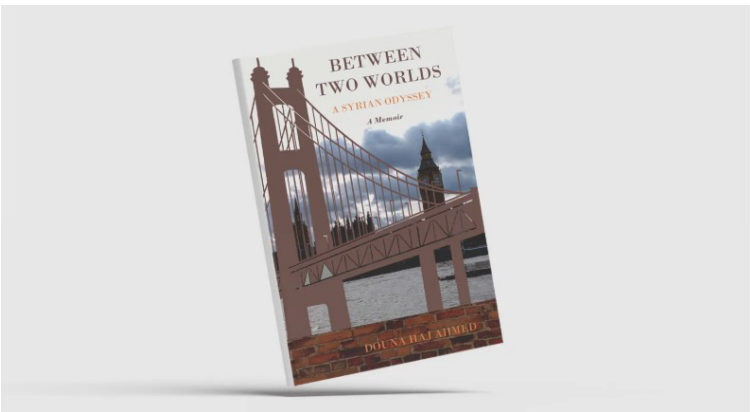
يزيد جبر شعث يصدر ديوانه الأول "لست أنا من أكتب لكم"

من حوله. كما تحضر التجربة الفلسطينية في المجموعة بوصفها جزءا أساسيا من السياق الذي ولدت فيه القصائد. ويمثل "لست أنا من أكتب لكم" الإصدار الشعري الأول ليزيد جبر شعث، في تجربة تكتب من داخل الحرب، وتحاول عبر القصيدة حفظ شيء من أثرها في الذاكرة، وتحويل التجربة الإنسانية القاسية إلى نص شعري يأتي إصدار الديوان ضمن الحضور المتواصل للكتابة الفلسطينية التي تتفاعل مع الحرب وأثارها، وتبحث في ما تتركه الأحداث الكبرى من تحولات في الإنسان والمكان والذاكرة.

الحرب"، مشيرا إلى أنها تتناول أثر الحرب على الإنسان عامة وعلى الفلسطيني خاصة، وأن قصائدها خرجت "ملطخة بالوجع". ويضيف شعث أن المقطوعة التي اختارها عنوانا للديوان تكشف تشككت بها القاصد في مخيلته، إذ جاءت الكتابة في ظل تجربة الحرب وما رافقها من مشاهد الموت والدمار والفقد، وما تركته تلك التجربة من أثر في الذات الإنسانية. ويتناول الديوان الحرب من زاوية إنسانية، من خلال حضور الفقد والذاكرة والمكان والخوف، وما تحدثه الحرب من تحولات في الإنسان وعلاقته بذاته وبالمحيط

رام الله – الحياة الثقافية- صدر حديثا عن اتحاد الكتاب الفلسطينيين يزيد جبر شعث ديوانه الشعري الأول "لست أنا من أكتب لكم"، الذي كتب قصائده خلال الحرب، متناولاً أثرها على الإنسان، وانعكاساتها على الفلسطيني، وما خلفته من وجع وفقد وتحولات في الذاكرة والمكان. واستمد شعث عنوان مجموعته من مقطوعة شعرية يقول فيها: "لست أنا من أكتب لكم، لهذا رجل لا أعرفه خلفته الحروب ومشاهد الإبادة". ويقول الشاعر إن المجموعة هي تجربته الشعرية الأولى التي كتبها "في الحرب وعن

"بين عالمين" .. رحلة من سوريا إلى بريطانيا بحثا عن وطن



للالتماء والأمل. وبين العالم الذي تركته دنى خلفها، والعالم الذي أصبحت جزءا منه، تظهر رحلة أكثر تعقيدا من مجرد الانتقال من سوريا إلى بريطانيا؛ إنها رحلة البحث عن طريقة للتصالح بين ماض لا يمكن التخلي عنه ومستقبل لا يمكن التوقف عن بنائه. وربما هنا تكمن إحدى أكثر الأفكار حضورا في الكتاب: أن الإنسان قد يغادر وطنه لكن الوطن لا يغادره بالسهولة نفسها، وأن البدء من جديد لا يعني محو ما سبق بل تعلم كيف نحمل ما فقدناه معنا، من دون أن ينعنا ذلك من الاستمرار في الحياة.

إلى المنافي أكثر مما يمكن أن تحمله حقبة سفر؛ ذكريات البيوت والشوارع، تفاصيل العائلة والأصدقاء، اللغة والعادات، صورة حياة كانت تبدو يوما عادية وبديهية، قبل أن تصبح جزءا من الماضي. ولهذا، لا يحاول الكتاب أن يروي قصة الحرب بقدر ما يروي قصة الإنسان الذي عاشها، وما الذي يحدث له بعد أن تتغير حياته ومكانه وعلاقته بفكرة الوطن إلى الأبد. وفي الوقت نفسه، لا يبقى الكتاب أسيرا للحنن أو الفقد. فألى جانب ما ضاع، هناك أيضا ما بنى من جديد؛ حياة جديدة، وعلاقات جديدة، ومساحة جديدة

لحياتها، وكيف يمكن للإنسان أن يحمل وطنه معه حتى بعد أن يصبح بعيدا عنه جغرافيا. ومن هنا يأتي عنوان الكتاب "بين عالمين"، إذ يعكس حالة العيش بينهما: عالم بقي في الذاكرة، وشكل الهوية، وعالم جديد أصبح واقعا يوميا ومكانا لبناء مستقبل جديد.

ويحاول الكتاب كذلك أن يذهب أبعد من الصورة النمطية لللاجئ بوصفه رقما أو حالة إنسانية عابرة. فمن خلال التفاصيل الشخصية والعائلية والمهنية، يظهر اللاجئ إنسانا يحمل تاريخا وذاكرة وأحلاما وعلاقات وطموحات، ويواجه بعد وصوله إلى الأمان معركة أخرى لإعادة بناء حياته واستعادة الشعور بالاستقرار والانتماء. في بلد اللجوء والأمان تبدأ أسئلة، مثل: ماذا يبقى من الوطن عندما يصبح بعيدا؟ وكيف يستطيع الإنسان أن يبني حياة جديدة من دون أن يشعر أنه يتخلى عن حياته الأولى؟ وكيف تتغير علاقتنا بالمكان والذاكرة والهوية عندما نجد أنفسنا، حرفيا ومجازيا، بين عالمين؟ ومن خلال قصتها الشخصية، تفتح دنى حاج أحمد نافذة على تجربة عاشها كثير من السوريين الذين حملوا معهم

لندن: صدر في لندن بالإنجليزية كتاب "بين عالمين: رحلة سورية" للكاتبة دنى حاج أحمد، عن دار النشر البريطانية "Palewell Press".

وهو عمل يمزج بين السيرة الذاتية والشهادة الإنسانية على واحدة من أكثر المراحل قسوة وتعقيدا في التاريخ السوري المعاصر. تنطلق دنى حاج أحمد، في كتابها، من حياتها في سوريا قبل أن تتغير ملامح ذلك العالم، مع اندلاع الحرب السورية. ومن خلال تجربتها الشخصية، تروي ما تعنيه الحرب حين لا تعود خبرا سياسيا أو رقما في نشرات الأخبار، بل تصبح جزءا من تفاصيل الحياة اليومية: الخوف، والفقد، والانفصال عن الأماكن والأشخاص، والاضطرار إلى اتخاذ قرارات يمكن أن تغير مسار حياة كاملة. لكن "بين عالمين" ليس كتابا عن الحرب وحدها، فهو يتابع رحلة اللاجئ وما يأتي بعدها: الوصول إلى بلد جديد، ومحاولة البدء من الصفر، وتعلم العيش داخل مجتمع مختلف، والبحث عن الأمان والاستقرار، ومواجهة الأسئلة المعقدة المتعلقة بالهوية والانتماء والذاكرة. تتابع المؤلفة التحولات التي مرت بها